دراسات فى الفن

آلو ... الدكتور عزام ؟!

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

— يا للنهار ! مالك أنت والغناء ؟ لك ساعة وأنت تموى وتنهق بأكره الصوت جادا مجتهداً كأنما تجرب إذاعة لهذا المساء ؟ هل زيفت نفسك على ماركوني وألقيت فى روعه أنك موسيقى مغن مطرب ملحن ؟ أما إذا كنت فعلتها فهى كبرى المصائب ، ونكبة النكبات

— إنى لم أفعلها إلى الآن . ولكنى أعد نفسى لها ، وهى من غير شك أربح الأشغال فى هذه الأيام . فقد وصل سعر اللحن عند ماركونى إلى مائة جنيه ، ينفق عليه منها عشرة على الأكثر يأخذها تخت كامل وفوق الكامل . ثق أنى سأبدأ العمل وثق أنى أعرف طرق النجاح فيه

— قل شيئاً غير هذا ، وامح علامات الجد هذه من على وجهك فقد كدت أصدقك ... أمجنون ؟ !

— سترين أنى عاقل عندما تسمعين مصطفى بك رضا بنفسه يقدمنى للجمهور من خلال الميكروفون وهو يقول : « آنساتى سيداتى سادتى . أقدم لكم الآن بكل فخر كوكب الإذاعة الجديد الموسيقار العبقرى البروفسور عزيز فهمى فى أغنيته الأولى « التختروان » وهى من تأليفه وتلحينه ... على تخت مكون من كبار رجال الفن »

— وما الذى يمنعك ما دمت واثقاً أن هذا ممكن ؟

— لا شىء يمنعنى . وإنما كانت الفكرة غائبة

— وقد جاءت الفكرة وستنفذها . أليس كذلك ؟ قل لى الآن بم ستبدأ

— بالشعر ... صحيح أنى لست شاعراً ولكنى أعرف من العروض وأوزان الشعر ما أستطيع به أن أنظم الكلام . ثم إنى أعرف الكلام الذى يحبه الجمهور وليس على أكثر من أن أرصه فى النظم رصًّا وهو لا يعدو « النوح والدوح ، والأغانى والأمانى ، والدموع والخضوع ، والغزل والأمل » وسائر هذه الألفاظ التى يقولها القمر للأستاذ أحمد راى وهو نائم تحت السرير فى الغرفة الغربية المطلة على الحقول من منزله فى حدائق القبة ... فإذا ما انتهيت من القصيدة شمراً بدأت فى تلحينها ، وهذا شىء أيسر من الشعر ، وهو لا يكلفنى أكثر من مراجعة ألحان سيد درويش وبعض الألحان الشرقية والغربية مما لم يسمعه الجمهور أو مما قد سمعه ، وآخذ لكل شطر أو لكل بيت من أغنيتى لحناً من هذه الألحان ، فإذا لاحظت فى هذا الترقيع أن يكون منسجماً يمشى بعضه مع بعضه من غير تنافر فإنى قد جئت بما لم يجىء به الأستاذ محمد عبد الوهاب نفسه، فنحن لا نزال نرى فى مقطوعاته جميعاً التنافر ظاهراً بين أجزائها المجموعة من الشرق والغرب ... فماذا تريدين منى أكثر من التفوق على عبد الوهاب ؟

— وبعد ؟

— أتفق مع الأستاذ محمد القصبجى على أن يتعهد بمراجعة اللحن مع أفراد التخت بخمسة جنيهات يأخذها ربحاً حلالاً على هذا ، وعلى أن يعزف معى بعوده الممتاز فى الإذاعة ... وهو لن يرفض خمسة جنيهات حلالاً ... وإذا أخذ الأستاذ إبراهيم العريان وهو سيد العازفين على القانون فى مصر جنيهاً واحداً ليشترك معى فى الإذاعة فإنه سيدعو لى ليلاً ونهاراً لأنه يقضى الشهور معطلاً لا يكاد يدعوه أحد إلا زكريا أحمد الذى يعرف قدره وقدر فنه ولأن الباقين يتقونه خشية أستاذيته ... وتبقى أربعة جنيهات بعد ذلك أوزعها على أفراد التخت ، ولا شىء أخيراً إلا ولية لرجال الصحافة وبعض الملق والمداهنة وأنا زميل لهم وأظن أنهم يجاملوننى

— طيب والغناء ؟ أتغنى بصوتك هذا نفسه ؟

— ولم لا ؟ أليس صوتى أرخم من صوت الأستاذين حسين المليجى وحامد مرسي ؟ وما دامت الصحافة ستقول هى ومارکونى إنى مغن ممتاز عبقرى ، فلا بد أن يصدق الناس أنى كذلك ... والحق أنى كذلك ...

— تريد أن يجوز هذا علىّ أنا أيضاً ؟

— للفنان الحق يا آنستى لا بد أن يؤمن بفنه قبل أن يؤمن به الناس ...

— يا عينك ! ولكنك لم تقل لى كيف تستطيع اجتياز العقبة الأولى وهى إقناع مصطفى بك رضا بأنك فنان ...

— هذه أهون الهينات ... وهى بيد الدكتور عبد الوهاب عزام الذى لا يزال يذكر أنى تلميذه ، والذى يعطف علىّ فيما يبدو لى ، والذى أعتقد أنه لا يتأخر عن مساعدة رشيقة كهذه ..

— وما للدكتور عزام الأستاذ فى الجامعة والذى يكتب عن رحلاته فى الشرق والغرب ، وهذه « الألعوبة » أو « الألعبانة » التى تريد أن ترتكبها ...

— الرجل رجل طيب ، فإذا التصقت به لم يجرؤ على طردى لأنه حيىّ خجول ، ولأنى سأذكره بالحكمة التى تقول : « من علمنى حرفاً صرت له ضيفاً » وقد علمنى هو اللغة الإيرانية كلها ... والدكتور عزام قريب صاحب المعالى عبد الرحمن عزام بك وزير الأوقاف ، والأستاذ مصطفى بك رضا موظف فى وزارة الأوقاف فإذا رآنى حول الوزير مرة أو مرتين أصبحت عنده شيئاً مذكوراً ... فإذا دعوته يوماً إلى سماعى ونبهته إلى أن الدكتور عزام سيسمعنى معه خف إلىّ كالبرق الخاطف حباً فى مجالسة الناس الطيبين ، فإذا لبى الدعوة هؤلاء الناس الطيبون الذين من عادتهم أن يجبروا خواطر الناس ، بدأ الإيمان بى وبفنى يدخل نفس مارکونى ، فإذا جاملنى أحد الناس الطيبين « بآه » أو « بأحسنت » كان هذا مستنداً لى على أنى فنان مقتدر ... فإذا قلت عن نفسى بعد ذلك بأنى عبقرى وأنى نابغة العصر والأوان زيادة على أنى شاعر كبير ومثقف مطلع ومفكر عظيم فإنى من غير شك واصل إلى الاتفاق الذى أرجوه ...

— ولكن هذا كله لا يساعدك فى شىء ... فمصطفى بك رضا نفسه موسيقى ، وهو نفسه حَكَمٌ فى الفن لا يمكن التدليس عليه

— قد يكون هذا حقاً ، ولكن الرجل أعقل من أن يحكم بالفن وحده ... فهو بلا شك يقيم إلى جانب الفن اعتبارات أخرى يستعينها فى الحكم على الفنانين الذين يعملون فى الإذاعة .. وإلا فكيف يسمح بالغناء لمن تعرفينهم من المغنين الذين لو استمعوا إلى أنفسهم لما رضوا أن يغنوا ... ألا يذيع كثيرون من هؤلاء ؟

— ولماذا يفعل هذا ؟

— إسأليه ... واعلمى أنه محسوب على السيدة نفيسة فهو تقى جداً وورع جداً ولا يمكن مطلقاً أن يقول غير الحق ولا أن يظهر غير ما يخفى ... زيدى على ذلك أنه من أسرة كبيرة غنية ، وأن له من الحسب والنسب ما يدرأ عنه كل شبهة ... وإن كان فيه عيب فهو أنه رجل طيب ... طيب جداً ، سبحته لا تفارقه ، وشفتاه لا تكفان عن التمتمة والتسبيح ، ولعل مارکونى لم يأخذه إلا لأنه بركة

— إذن فقد انتهى الأمر ، وإنى أوصيك بأن تبدأ ...

— اسألى لى عن الدكتور عزام بالتليفون ، فإذا وجدته فقولى له : إن هيئة كبار العلماء ستتغدى عندك اليوم .

— وما لهيئة كبار العلماء هذه أيضاً ؟

— هذا اسم كان يطلقه الدكتور عزام على فرقتنا التى كانت مؤلفة من ثلاثة . قال الأستاذ أحمد أمين يوماً : إن كلية الآداب لم تر مثلهم ولن ترى مثلهم

— فى الجد والتحصيل ؟

— لا . فى العنف والكفاح والرجاء والإيمان . دعينا من هذه الذكريات . هل وجدت الدكتور ؟

— لا . فلتنتظر ساعة . والآن قل لى : لماذا اخترت أن يكون اسم أغنيتك « التختروان » ؟

— أنا لم أخترهذا . وإنما هو الرد الطبيعى على أغنية « الجندول » التى غناها عبد الوهاب . « فالجندول » هذا مركب أوربى يسير فى شوارع البندقية — وهى مياه — ولا يعرف هذا « الجندول » إلا فئة خاصة من المصريين ؛ أما « التختروان » فيعرفه المصريون جميعاً والعرب جميعاً ، لأنه « الهودج » الذى يوضع على ظهر الجمل فإذا كان « الجندول » الذى لا يعرفه المصريون قد أصبح أغنية فلا عجب فى أن يتغنوا « بالتختروان » !

— ليس الذنب فى « الجندول » ذنب عبد الوهاب ، وإنما هو ذنب الأستاذ الشاعر على محمود طه المهندس الذى زار البندقية وحدث له « الجندول » فيها فسجله شعراً ، ولحنه عبد الوهاب

— قد يغتفر للأستاذ الشاعر هذا الجندول ما دام قد حدث له

ولكن لماذا يغنيه الأستاذ عبد الوهاب ؟ وقد خلق الله له موهبة التقليد التي يأبى أن يستغلها

— لم أسمع أن التقليد موهبة فنية لها مكانتها بين الفنون إلا الآن

— هي موهبة من غير شك ، وهي موهبة عبد الوهاب ؛ وهي التي ظهرت فيه منذ طفولته ، فقد كان وهو غلام يغني كل ما يسمعه ويوفق في تأديته خير التوفيق ، حتى أن المرحوم الأستاذ عبد الرحمن رشدي أخذه معه ، وأخذ يعرضه بين الفصول يغني للنظارة بعض أناشيد المرحوم الشيخ سلامة حجازي على ما فيها من قسوة وجبروت، فكان ينال إعجاب الناس، وسمعه بعد ذلك المرحوم أحمد شوقي بك فطرب له فاحتضنه وتبناه وقدمه لأصفيائه وللبيئة التي كان يعيش فيها وهي بيئة الأمراء والكبراء فكان عبد الوهاب يغنيهم من محفوظاته وكان عليهم أن يستحسنوا غناءه ؛ فلما مات سيد درويش فوجئ الجمهور بعبد الوهاب الملحن الموسيقار، وكانت المفاجأة بالطريقة التي أريد أما أن ألجأ الجمهور بها ومنذ ذلك الحين بدأ عبد الوهاب يتعثر إذ عدل عن الموهبة التي خلقها الله له إلى ما لم يسمح الله له به . على أنه كان غالباً ما ينجح إذا غنى المواليا ، ذلك أنها غناء مصري للقاهرة ، فيه أسلوب خاص تأثر به عبد الوهاب كل التأثر منذ صباه ، وقد سلمت بعض قصائده من التنافر والتخبط لكثرة ما غنى في ماضيه للمرحومين : الشيخ سلامة حجازي ، والشيخ أبو العلا محمد ؛ أما ما عدا ذلك من الأغاني ، فعبد الوهاب يعاني الأمرين في غير شك في صوغه . وقد كان المرحوم شوقي بك يغربل له موسيقاه فلما مات لم يعد عبد الوهاب يسمح لأحد بأن يكون له في موسيقاه رأي إلا السجود لها ولا أقل

— يا شيخ ! لا تكن ظالماً

— لست أظلمه . ولو أنصف عبد الوهاب لظل كما كان مغنياً يغني لغيره ممن يستطيعون التلحين ، أو أن يكون مغنياً بلدياً كغيره من أولاد البلد الفنانين البارزين ، وليس هذا عيباً ، وليس فيه حطة ، فالناس كلهم أو أغلبهم مجمعون على استحسانه في المواليا ، وفي القصائد قبل أن يفرنجها … أليست « يا جارة الوادي » خيراً من « الجندول » ؟ ولكنه أصيب بما في رأسه ، وهو لا يريد مطلقاً أن يذكر الجمالية ، ولا باب الشعرية ، ولا « حوانيت التربية … » مع أنه أنفق حياته الأولى في هذه … وهو فنان ، والفنان لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يغفل ماضيه … وإن حياة الفنان الأولى التي قضاها وهو بعيد كل البعد عن التفكير في مشاغل الدنيا وأرباحها وخسائرها لهي المعين من الفن الذي لا ينضب … وإنها أصدق ما يمكن أن يبرزه من الفن ، وأسنى ما يمكن أن يطالع به الناس من عواطفه وخلجات روحه . أليس كتاب « الأيام » هو أروع ما أخرجه الدكتور طه حسين بك . وأي شيء في كتاب « الأيام » غير قسط ظاهر من الصدق … إن الدكتور طه حسين قد تحول اليوم إلى إنسان آخر غير الطفل بطل الأيام … وهذا الإنسان الآخر له مجد وله مكانة وله شهرة ، وله منصب وله رتبة ، ومع هذا فالطفل « طه حسين » بطل الأيام أحلى من الدكتور طه حسين بك ، والدكتور طه حسين بك نفسه يعترف بهذا فلا يهمل هذه المرحلة من حياته وإنما يكتبها ويخرج من بين يديه خير ما كتب …

— إذن فعلى عبد الوهاب أن يغني غناء بلدياً أو يقلد الشيخ سلامة حجازي وغيره …

— من غير شك هذا هو خير ما يستطيعه عبد الوهاب ، لأنه أحلى ما فيه ، ولأنه كان هكذا في طفولته … فهذا هو ما خلقه الله له لا ما اختاره هو لنفسه …

— ولكن هذا الطريق لن يجدي عليه نفعاً كبيراً … فمن الذي يعطيه مائة جنيه في أغنية قديمة ؟

— الرزق هذا شيء لا حيلة للانسان فيه ، وإنما حيلة الإنسان في عمله والله يعطي بعد ذلك من غير حساب … إن بتهوفن وسيد درويش ماتا معدمين ولم يجمعا في حياتهما عشر معشار ما جمعه عبد الوهاب فهل هو أنصع منهما فناً ؟… إن كرستوف كولمبس الذي عثر على . أمريكا لم يمت إلا بعد أن استجدى في شوارع نابولي على ما أظن … فالرزق شيء والعمل شيء … والفرقة القومية بدأت تفكر في تقديم الأوبرا والأوبريت ، وعبد الوهاب من غير شك هو المغني الأول الذي أرشحه لها … فمن ذا الذي يستطيع أن يقنعه بقبول هذا العرض ؟ …

— يهديه الله …

— سيهتدي عند ما يرى أن أزاحه، وعند ما يجد مني سر نجاحه، وعند ما يلحظ أني سأحسن استعمال هذا السر أكثر مما يحسنه

— إذن . فأنت لا زلت مصراً

— من غير شك … إسألني عن الدكتور …

عزيز أحمد فهمي

(الرسالة) لا نظن كثيراً من النقاد يشاطرون الأستاذ عزيزاً رأيه في الأستاذ عبد الوهاب .